الفصل الأول

الديموجرافيا اليهودية

obeikan.com

obeikandl.com

يهودى بشكل ما

يتصوَّر الكثيرون أن اليهود كتلة بشرية متجانسة، وأن ثمة قالبًا يهوديًا يمكن أن نضع فيه كل اليهود. ولكن الدراسة المتأنية تبيِّن أنه لا يمكن الحديث عن اليهود بشكل عام، ولذا فإنى أفضِّلُ الحديث عن «الجماعات اليهودية»، وهى جماعات مختلفة، تكتسب خطابها الحضارى من المجتمع الذى تعيش فيه. وهنا يطرح السؤال نفسه: لِمَ نسميها جماعات يهودية، وليست جماعات وحسب؟ الإجابة على هذا السؤال صعبة بعض الشيء إذ يمكننا القول إن ما يجمعها هو عقيدتها اليهودية، ولكن ثمة مشاكل كثيرة ستواجهنا. وابتداءً يجب أن نشير إلى أن ثمة فارقًا بين اليهودية واليهود. فاليهودية عقيدة دينية لها سمات معينة، واليهود هم من يؤمنون (أو يدعون الإيمان) بها. ولا يوجد مجال لترادف الواحد بالآخر (هل يوجد ترادف بين الإسلام والمسلمين أو بين المسيحية والمسيحيين؟). وعدم الترادف هذا يزداد عمقًا فى حالة اليهودية التى عرَّفت اليهودى بطريقة عقائدية، كما تفعل كل الأديان (اليهودى هو من يؤمن باليهودية). ولكنها عرَّفته أيضًا بطريقة عِرْقية، كما تفعل العقائد البيولوجية الحتمية (اليهودى هو من يولد لأم يهودية).

وينقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى عدة أقسام أساسية: إشكناز وسفارد ويهود البلاد الإسلامية. ولكن إلى جانب ذلك بيَّنت أن هناك جماعات يهودية هامشية لا حصر لها ولا عدد. فهناك على سبيل المثال لا الحصر السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساسًا بنسخها المختلفة عن

تلك المتداولة بين اليهود كافة، ومركزهم هو جبل جرزيم فى نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجىء الماشيَّح. وهناك أيضا القرَّاءون الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلى الإسلامى)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف فى كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل. وهناك بقايا يهود كايفنج فى الصين، يعبدون يهوه الذى يسمونه تين (السماء) ويتعبدون فى معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف. وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملامحهم صينية تمامًا. ويقدمون لأسلافهم قرابين من لحم الضأن، أما هم فلا يمانعون فى أكل لحم الخنزير. ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها كونفوشيوسية (تمامًا مثلما نجد أن يهودية بنى إسرائيل فى الهند يهودية هندوكية). وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

لكن بدلاً من الدخول فى تفصيلات لا حصْر لها، يمكن أن نقارن بين عينتين: إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر تجمع يهودى فى العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشا الذين يشكلون تجمعًا صغيرًا هامشيًا ومنعزلاً. وقد لاحظت الأولى عن قرب نتيجةً للوقت الطويل الذى قضيته فى الولايات المتحدة، أما الفلاشاه فقد قرأت عنهم الكثير.

ينتمى يهود الولايات المتحدة، بالدرجة الأولى، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل إشكنازى (ألمانى / روسى/ بولندى). وتوجد قلة من السفارد، والقرَّائين، والكرمشاكى (وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة من شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالتترية، ويبدو أنهم من بقايا يهود الخزر). وهناك أيضًا بعض الأمريكيين السود الذين يُدعون «العبرانيين السود» (يقال إن بعضهم ثمرة الجماع بين بعض أصحاب

المزارع اليهود وخليلاتهم السود والبعض الآخر ثمرة التهود)؛ وهؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن إفريقيا عن طريق شرق قناة السويس، ويدَّعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنهم هم وحدهم أصحاب الحق فى استرداد إسرائيل والاستيطان فيها وحكمها. وتوجد جماعة منهم فى شيكاغو هاجرت أعداد منها إلى إسرائيل، حيث استقروا فى جوار ديمونا فى أماكن أخرى. وبطبيعة الحال فإن إسرائيل والمؤسسات الحاخامية لا تعترف بأمثال هؤلاء، ولذا فهم يشكلون أقلية منبوذة داخل كل من الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية فى الولايات المتحدة.

أما الفلاشا، فهم من يهود إثيوبيا، وملامحهم لا تختلف من قريب أو بعيد عن ملامح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا. وإذا كان هناك بينهم من تنويعات، فهى تنويعات تشبه فى بعض الوجوه التنويعات الموجودة فى مجتمعهم. وهناك جماعة الفلاشا موراه، وهى جماعة مسيحية شبه يهودية منبوذة من الفلاشا كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنين من الزمان.

ومن الناحية الدينية، ينقسم يهود الولايات المتحدة إلى قسمين أساسيين: يهود إثنيون لا أدريون، ويهود متدينون، وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى إصلاحيين ومحافظين وتجديديين وأرثوذكس (ويوجد بعض الفرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيون فى الولايات المتحدة يتعبدون فى المعبد اليهودى (السيناجوج)، ويرأسهم حاخام، ولا يقيمون معظم الشعائر، ولا يكترثون بالطعام الشرعى أو بشعائر السبت والطهارة والنجاسة.

أما الفلاشا، فهم أساسًا خارج نطاق اليهودية الحاخامية، ولا يعرفون التلمود، وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخامية؛ فشعائر الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع هذا، فهم يقيمون شعائرهم

كلها (وقد صُدموا حينما هاجروا إلى إسرائيل بسبب انصراف أعضاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهودية). ويرأس يهود الفلاشا قساوسة (يُقال لهم قسيم)، وهى جمع كلمة «قسيس» بالعبرية، ولا أدرى هل يستخدمون هذه الصيغة العبرية فى إثيوبيا نفسها، أو أنها شكل من أشكال التدليس الصهيونى، فكُتبت الكلمة على هذا النحو حتى لا يضطر المؤلف إلى كتابة كلمة priests الإنجليزية بكل إيحاءاتها المسيحية؟ وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبان وراهبات، ويصلون فى معبد يهودى يسمَّى المسجد، ويخلعون نعالهم قبل دخوله! (هل يمكن اعتبارهم يهودا أساسًا؟). أخبرنى صديق فلسطينى يعمل فى موشاف (مزرعة تعاونية) أنه كان هو وأصدقاؤه الفلسطينيون يؤدون صلاة الجماعة، ففوجئوا بأحد العمال الفلاشاه ينضم لهم ويحاول تأدية الصلاة، فهو يعرف بعضها وحسب. وتصورى أنه من مناطق يسكنها الفلاشاه قريبة من المناطق الإسلامية، فتأثروا بها. المهم انتهت القصة بأن قام صاحب الموشاف بطرد الجميع.

ومن ناحية اللغة، فإن يهود الولايات المتحدة يتحدثون الإنجليزية، ويعرف بعض علمائهم العبرية والأرامية. كما توجد العبرية فى بعض كتب الصلوات. أما يهود الفلاشا، فهم يتحدثون بالأمهرية (ويتحدث بعضهم بالتيجرينية)، ويتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد.

ولكل جماعة من هاتين الجماعتين خطابها الحضارى وفلكلورها الذى ينبع- فى حالة يهود أمريكا - من محيطهم الحضارى الحالى (الأمريكى)، أو من محيطهم الحضارى السابق (روسيا - بولندا - إنجلترا). أما فى حالة يهود الفلاشا، فهو ينبع كله من محيطهم الحضارى الإثيوبى الإفريقى. وفى حين أن اليهودى الأمريكى يرتدى البنطلون «الجينز» ويأكل «الهامبرجر» ويرقص الديسكو ويعيش فى منزل عصرى، وقد يُطعِّم حديثه

ببعض الكلمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم باليديشية، كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التى كانوا يرتدونها فى شرق أوربا، فإن يهودى الفلاشا يرتدى شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبيا، وهو يأكل طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة فى منطقته، ويعيش فى كوخ مغطى بالحطب لا يختلف من قريب أو بعيد عن الأكواخ المجاورة. والوضع الاجتماعى ليهود أمريكا (نسبة الطلاق - الوظائف - المهن) ورؤيتهم للكون يختلف تمامًا عن وضع الفلاشا ورؤيتهم.

لهذا كله، وجدت أن مصطلح «يهودى» مصطلح عام للغاية، ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه. ولعل عدم تحدد مصطلح «يهودى» يظهر فى عبارة تستخدمها الإحصاءات اليهودية لتشير إلى مجموعة من الناس يصنفون على أنهم «يهود بشكل ما» (بالإنجليزية: جويش سام هاو Jewish somehow) وهى عبارة خالية من المعنى، تدل على مدى الإخفاق فى تعريف اليهودى.

□□□

الديموجرافية اليهودية وظهور الصهيونية

حينما نتناول المسألة اليهودية وظهور الصهيونية فى العالم الغربى، فإننا - إذ كنا لا نؤمن بنظرية المؤامرة والشر اليهودى الأزلى - نبحث عن الأسباب السياسية والاجتماعية التى أدت إلى تفشى الظاهرتين المتلازمتين: العداء لليهود والصهيونية فى نهاية القرن التاسع عشر فى الغرب. ومن الأسباب السياسية والاجتماعية التى لم ينتبه لها كثير من الباحثين البُعد الديموجرافى لهاتين الظاهرتين، ولكثير من الجوانب الأخرى لتواريخ الجماعات اليهودية.

تقول التقديرات التخمينية إن تعداد العبرانيين فى عام ١٠٠٠ ق. م بلغ نحو ١,٨٠,٠٠٠. ولكن هناك من يذهب إلى أن هذا العدد مُبالغ

فيه. ففلسطين بلد صغير، مواردها فقيرة، ومستوى تطور سكانها التكنولوجى آنذاك كان منخفضًا، فكيف كان من الممكن أن تمد مثل هذا العدد بأسباب الحياة (مع العلم بأن عدد سكان مصر آنذاك بكل إمكاناتها كان ستة ملايين)؟ ولعل فقر فلسطين آنذاك ووقوعها بين الإمبراطوريات العظمى فى الشرق الأدنى القديم جعلها نقطة عبور لكثير من جيوشها ونقطة ارتكاز لها. وقد أدى هذا إلى هجرة أعداد كبيرة من العبرانيين، ليعملوا كجنود مرتزقة فى البلاد المجاورة، أو كتجار فى حوض البحر المتوسط، أى إن هذا هو بداية ما يسميه الصهاينة «الشتات» أو «الدياسبورا».

مهما كان الأمر، تناقصت أعداد العبرانيين حتى بلغ نحو مليون ومائة ألف نسمة حوالى عام ٧٢٠ ق. م، ثم انخفض هذا العدد مع التهجير الآشورى والبابلى (٧٢١ ق. م و ٥١٧ ق. م على التوالى) فلم يتجاوز عدد العبرانيين ١٥٠ ألفا. وهذا الرقم الأخير يُلقى بظلال كثيفة من الشك على الأرقام المليونية السابقة، لأن الآشوريين والبابليين كانوا يقومون بتهجير أعضاء النخب الحاكمة للأقوام التى يهزمونها وحسب، مما يعنى أنهم كانوا يتركون أغلبيتهم فى مواطنهم. وقد انصهر معظم المهجَّرين العبرانيين فى البلاد التى هُجِّروا إليها (ومن هنا الحديث عن «الأسباط العشرة المفقودة» والتى يجب أن تصبح فى واقع الأمر «الأسباط العشرة المنصهرة») كما ازداد اندماج من تبقى من العبرانيين فى فلسطين والشعوب المحيطة بها.

ولكن مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد تختلف الصورة تمامًا إذ يبلغ عدد اليهود آنذاك - حسب بعض التقديرات التخمينية - حوالى ٨ ملايين، بينما تذهب بعض التقديرات التخمينية الأخرى إلى أن عددهم لم يكن يتجاوز خمسة ملايين ويمكن أن نشير إلى طفرتين سكانيتين فى تاريخ

أعضاء الجماعات اليهودية وهذه أولاها. وهى تعود لعدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية بتهويد بعض القبائل والشعوب المجاورة التى وقعت تحت سيطرتها، كما أن الفرنسيين قاموا بحركة تبشيرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد طوَّروا مفهومًا لليهودية جعل منها ديانة عالمية منفتحة (على عكس اليهودية الحاخامية أو التلمودية التى جاءت بعدها). كما أن ما يسمى الأمن الرومانى «باكس رومانا» الذى ساد المناطق التى كان يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية قد وفّر لهم الأمن والطمأنينة، الأمر الذى ساعدهم على التكاثر. واشتغال اليهود بالتجارة كان يعنى ابتعادهم عن المهام القتالية، مما يعنى أنه لم يسقط من بينهم قتلى. ويُقال إنه مع سقوط قرطاجة انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية باعتبارهم جميعًا ساميين ينتمون إلى نفس التشكيل الحضارى ويعملون بنفس المهنة (التجارة). ولعلهم فعلوا ذلك حتى يستفيدوا من شبكة التجارة اليهودية.

وهنا يجب أن نشير إلى حقيقة سكانية هامة تحرص المراجع الصهيونية على إخفائها وهى أن غالبية اليهود كانت تعيش خارج فلسطين قبل سقوط الهيكل (٢,٥٠٠,٠٠٠ فقط هى فلسطين والباقى خارجها، إن أخذنا بالرقم ٨ ملايين). وهذا يدحض الأسطورة الصهيونية التى تذهب إلى أن شتات اليهود كان قسريا وأنه حدث بسبب سقوط الهيكل (مركز اليهود واليهودية)، وأنه لم يكن مجرد انتشار طوعى، بحثًا عن الرزق كما يحدث لكثير من الجماعات البشرية.

وإذا كان عدد اليهود قد وصل بالفعل فى القرن الأول الميلادى إلى ما بين ٨ ملايين فى أحسن تقدير وخمسة ملايين فى أسوئه، كان من المفروض أن يصل عددهم من خلال التكاثر الطبيعى إلى خمسين أو ربما مائة مليون فى القرن السادس الميلادى مع بدايات العصور الوسطى فى

الغرب والعصر الإسلامى فى الشرق. ولكننا نفاجأ بأن عددهم لم يتجاوز مليونًا أو مليونين (كان أغلبهم يتركزون فى العالم الإسلامى). ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا بأن أعدادًا كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية قد اعتنقت المسيحية وانصهرت فى مجتمعاتها (وهذا يتناقض مع الرؤية الصهيونية التى تذهب إلى أن اليهود لا يندمجون فى مجتمعاتهم قط ويؤثرون العزلة فى جيتواتهم، وهى أسطورة أخرى تدحضها الوقائع الإحصائية فى الماضى والحاضر والمستقبل (كما سنبين فيما بعد).

وقد بدأت الطفرة السكانية الثانية والأخيرة بين اليهود بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ حتى بلغ عددهم عشية الحرب العالمية الثانية ١٦,٧٢٤,٠٠٠ كما هو مبيَّن فى الجدول التالى:

السنة	العدد الإجمالى
١٨٠٠	٢.٥٠٠,٠٠٠
١٨٤٠	٤,٥٠٠,٠٠٠
١٨٦٠	٦,٠٠٠.٠٠٠
١٩٠٠	١٠,٥٠٠,٠٠٠
١٩٣٠	١٥,٩٠٠,٠٠٠
١٩٣٩	١٦,٥٠٠,٠٠٠

وتعود هذه الطفرة إلى عدة أسباب من بينها تحسُّن الأحوال الصحية فى العالم الغربى نتيجة الثورة الصناعية، خاصةً بين اليهود نظرًا لأن مستواهم المعيشى كان أعلى من مستوى غالبية السكان. نضيف إلى هذا أن المستوى الثقافى العام بين أعضاء الجماعات اليهودية كان أعلى من مستوى

الفلاحين السلاف. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على نوعية الطعام الذى يستهلكونه وأدى إلى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية. كما أن الرقابة على الطعام بين الجماعات اليهودية كانت قوية نظرًا لتطبيق قوانين الطعام. وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية من التماسك، الأمر الذى يُشجِّع على الإنجاب، ويضمن الرعاية الصحية للأطفال مما يخفض نسبة الوفيات بينهم.

ويُقال إن زواج اليهود فى سن مبكرة كان من أهم العناصر التى ساهمت فى تزايد عددهم. وأخيرًا لم تشهد الأماكن التى تركزت فيها الجماعات اليهودية فى الفترة بين عامى ١٨٠٠ - ١٩٨٤ أية حروب، كما أن كثيرًا من الدول كانت لا تجنِّد أعضاء الجماعات اليهودية. كل هذه العوامل أدت دون شك إلى تزايد عدد أعضاء الجماعات اليهودية. وحسب الجدول السابق نجد أن عددهم زاد ستة أضعاف فى غضون قرن ونصف. وكان معظمهم يتركزون فى شرق أوربا، خاصةً بولندا/ روسيا. وقد تزامنت هذه الطفرة السكانية مع تعثر التحديث فى روسيا القيصرية، مما جعل الاقتصاد الروسى غير قادر على استيعاب الأعداد المتزايدة من أعضاء الجماعات اليهودية، مما أدى إلى ظهور جو معاد لليهود داخل روسيا وملائم لظهور الصهيونية، التى تطالب بتخليص أوربا من اليهود. وبدأت جحافل اليهود تهاجر إلى بلاد أوربا الوسطى والغربية.

وقد أدى تزايد عدد اليهود إلى تفاقم المسألة فى البلاد التى كانوا يهاجرون إليها (باستثناء البلاد الاستيطانية مثل الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية نظرًا لحاجتها لمادة استيطانية). ولعل حالة النمسا وإنجلترا (باعتبارهما مهد فكرة الصهيونية ووعد بلفور على التوالى) يصلحان كمثالين على ما نقول. فى عام ١٨٤٦م كان عدد يهود فيينا (التى كان يقطن فيها هرتزل مؤسس الصهيونية) ٣,٧٣٩ يهوديًا فقط لا غير،

وصل عددهم إلى ١٥ ألفًا عام ١٨٥٤، وبلغ ٢٠١,٥١٣ عام ١٩٢٣ م. ولاشك فى أن وجود مثل هذه الكتلة البشرية الغريبة وبهذا الشكل المفاجئ جعل الكثير من أعضاء الأغلبية يتصورون - إن صدقًا أو كذبًا - أن هذه الكتلة هى مصدر البطالة وكثير من الأمراض الاجتماعية وأنها تهدد الأمن الاجتماعى، مما ولّد موقفًا معاديًا لليهود ورغبةً فى التخلص منهم باعتبارهم فائضًا بشريًا غير منتج وغير منتمٍ (وهذا هو ذاته الموقف الصهيونى). وفى هذا المناخ ظهر هرتزل، الصحفى النمساوى المندمج تمامًا فى مجتمعه، ومؤسس الفكر الصهيونى الذى تبنى كثيرٌ من اليهود المندمجين فى بلاد وسط أوربا وغربها هذا الفكر، باعتباره دفاعًا عن أنفسهم وعن مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية التى كان يهددها هؤلاء المهاجرون من يهود اليديشية (الذين يتحدثون اليديشية وهى رطانة ألمانية دخلت عليها بعض الكلمات العبرية والسلافية، وتُكتب بالحروف العبرية)، والذين كانوا يحملون معهم عقلية جيتوية وشعورًا عميقًا بعدم الاطمئنان دون أن تكون لديهم الخبرات اللازمة للاندماج فى مجتمعاتهم الجديدة.

ويمكننا الآن أن نتناول الوضع فى إنجلترا. كان يوجد فى إنجلترا عام ١٨٥٣ حوالى ٢٥ ألف يهودى فقط لا غير، وصل عددهم ٢٤٢ ألفًا عام ١٩١٠م ثم حوالى ٣٠ ألفًا، وكان عدد كبيرٌ من المهاجرين تجارًا وحرفيين صغارًا، أدى تواجدهم بهذه الأعداد الضخمة إلى ازدياد البطالة وازدحام المدن وانتشار الجريمة. ولذا ظهرت توترات شديدة لا بينهم وبين المجتمع الإنجليزى وحسب، وإنما بينهم كوافدين (من الأشكنان) وبين اليهود الأصليين (وكان معظمهم من السفارد) وكان هذا الفريق الأخير يشعر بأن الوافدين يهددون ما حققوه من مكاسب اجتماعية وطبقية.

ويلاحظ أن الاشتراكيين الإنجليز المعارضين للإمبريالية قد ذهبوا إلى أن مجموعة صغيرة من المولين الدوليين - ألمان في أصلهم ويهود في عنصرهم - حققوا نفوذًا قويًا في جوهانسبرج (في جنوب إفريقيا). وقد وصفوهم بأنهم «الحثالة الحقيقية» لأوربا، يسيطرون على حقول الذهب ويحتكرون صناعة الديناميت وتجارة الكحول السرية. كما يتحكمون مع سيسل رودس في الصحافة، ويتلاعبون بسوق الرقيق، ويديرون الأعمال التجارية الأساسية في كل من جوهانسبرج وبريتوريا. كما يُلاحَظ أيضًا أن أعدادًا كبيرة أيضًا من يهود إنجلترا، خصوصًا يهود اليديشية، انخرطوا في صفوف الحركات اليسارية والعمالية والعدمية. وأدّى هذا إلى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بكل من أقصى اليمين والرجعية، وأقصى اليسار والثورية، في وقت واحد.

في هذا الجو، شُكلت لجنة خاصة لمناقشة هجرة يهود شرق أوربا، وقدمت حكومة بلفور، الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء آنذاك، مشروع قانون عام ١٩٠٢ يُسمَّى «قانون الغرباء» الذى ووفِق عليه عام ١٩٠٥ للحد من الهجرة.

وفي هذا الإطار، طُرحت الفكرة الصهيونية، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية. وزار هرتزل إنجلترا لأول مرة عام ١٨٩٥ وألقى خطبة في حيّ إيست إند عن موضوع الهجرة، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية بينه وبين يهود اليديشية. ثم عُقد المؤتمر الصهيونى الرابع (١٩٠٠) في لندن. وحيث إن يهود إنجلترا الأصليين كانوا من كبار معارضى المشروع الصهيونى، توجه هرتزل أساسًا إلى يهود اليديشية، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيونى كرقعة تلتقى فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية. وفى عام ١٩٠٢، نجح أحد أصدقاء هرتزل في دعوته للمثول

أمام اللجنة الملكية، حيث قدَّم حـلاً صـهيونيًا مفـاده تحويـل الهجـرة مـن إنجلترا إلى أية بقعة أخرى خارج أوربا. وانطلاقًا من هـذا، عُـرض مشروع شرق إفريقيا، ثم صدر وعد بلفور، أهم حدث فى تاريخ الصهيونيـة، الـذى جاء انتصارًا للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترا، وللفكر الصهيونى على يهود العالم.

عالم آخذ فى الاندثار

نشرت جريدة يديعوت أحرونـوت (فـى عددهـا الصـادر فـى ٢٠ أبريـل ٢٠٠٠) مقالاً بقلم سيفر بلوتسكر بعنوان «عالم آخذ فـى الاندثـار»، وكلمـة «عالم» هنا تشير إلى «عالم اليهود». وإذا كان أعضـاء الجماعـات اليهوديـة قد واجهوا فى نهاية القرن التاسع عشر مشكلة تزايـد أعدادهـم فـإن الآيـة قـد انعكسـت تمامًـا فـى القـرن العشـرين حتـى وصلـت حـد الأزمـة فـى الوقت الحاضر.

وقـد أشـرنا إلى حـدوث طفرتـين سـكانيتين بـين الجماعـات اليهوديـة، الثانية بدأت بعد مؤتمر فيينـا عـام ١٨١٥ ممـا أدى إلى تحـول اليـهود مـن جماعات دينية إثنية صغيرة إلى جماعات يبلغ بعضها عدة ملايين، وكانت الجماعات اليهودية فى شرق أوربا تُعـد مـن أهـم الجماعـات مـن الناحيـة العددية. ولكن رغم استمرار أعدادهم فى التزايد إلى ما بعد الحـرب العالميـة الأولى إلا أن العوامل التى أدت إلى هذا التزايد اختفت تمامًا، كمـا ظـهرت عناصر لم يكن من شأنها تشجيع اليهود إلى الإنجاب بل وأدت إلى تنـاقص أعدادهم. ومن أهم هذه الأسباب تصاعد معدلات العلمنة، مما يعنـى تزايـد معدلات التوجـه نحـو اللـذة، والعـزوف عـن الإنجـاب. وهـذه الفـترة هـى مـا يُعـرف باسـم فـترة «الهجـرة اليهوديـة الكـبرى» (مـن شـرق أوربـا إلى الولايات المتحدة). والعنـاصر المـهاجرة - بسـبب عـدم اسـتقرارها - تتخـذ

موقفًا حذرًا من الإنجاب. كما أن غالبية يهود العالم بدأت تستقر فى المدن الكبرى والعواصم، ومن المعروف أن سكان المدن لا يتكاثرون بنفس معدل سكان القرى، كما أن المناطق التى تركز فيها أعضاء الجماعات اليهودية كانت مسرحًا للثورات والحروب (على عكس الفترة من ١٨١٥ - ١٩١٤). ويلاحظ أنه مع تزايد معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات اليهودية زادت معدلات الزواج المختلط والانصهار والتنصر. لكل هذا تناقص عدد اليهود وتناقصت معدلات الوفيات بينهم. وقد أشار يوريا إنجلمان فى كتابه «ظهور اليهود فى العالم الغربى» (١٩٤٤) إلى ما سماه العملية ذات الأبعاد الثلاثة (تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج) التى ستؤدى إلى تفسخ السكان اليهود بالكامل وحذَّر من أن نسبة المواليد لا تعوض نسبة الوفيات وأن معدلات المواليد بين اليهود فى شرق أوربا (قبل الهجوم النازى عليهم وعلى غيرهم من الأقليات) وصلت نقطة الخطر. وفى دراسة بعنوان اختفاء اليهود الألمان كُتِبت عام ١٩٠٨، حذَّر صاحبها (تايلهابن) مما سماه الضعف السكانى الذى قد يؤدى إلى اختفاء يهود ألمانيا تمامًا.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وقد ساهم فى تناقص عدد اليهود ظروف الحرب مثل المجاعة وسوء الأحوال الصحية وسوء التغذية والغارات على المدن وسقوط القتلى من أعضاء الجماعات اليهودية أثناء المعارك العسكرية وأعمال السخرة وعزل اليهود فى مناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف (جيتوات حديثة)، وهو ما كان يعنى المزيد من الجوع والمرض (يُقال إن نحو ثُلث سكان جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازى قضوا نحبهم بهذه الطريقة، وإن كان من المتوقع لهم جميعًا أن يُبَادُوا تمامًا خلال عدة أعوام). إلى جانب أن عدم الإحساس

بالأمن أثناء الحرب يُعد من أهم العوامل التى تجعل الناس يعزفون عن الإنجاب. كما يُلاحظ تزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط والتنصر بين أعضاء الجماعات اليهودية. وقد حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتسنى لهم دخول أمريكا اللاتينية وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر. وينطبق نفس الشىء على مئات الآلاف من اليهود الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هربًا من النازيين.

وهنا يمكن أن نثير قضية ستة الملايين ضحايا الإبادة النازية لليهود. فحسب بعض الإحصاءات الغربية (أقول بعض وليس كل، فهناك إحصاءات أخرى) انخفض عدد اليهود من ١٦,٥٠٠,٠٠٠ عام ١٩٣٩ (أى عشية الحرب العالمية الثانية) إلى ١٠,٨٥٠,٠٠٠، ويستنتج من ذلك أن عدد ضحايا الإبادة النازية هو ستة ملايين. ورغم أن الإبادة النازية ليهود أوربا وغيرهم من الأقليات هى تعبير عن نمط إبادى غربى عام (إبادة السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية - إبادة السكان الأصليين فى أستراليا ونيوزيلندا - إبادة الملايين فى إفريقيا - حرب الإبادة ضد ألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الثانية.. إلخ). ورغم أن تأسيس الدولة الصهيونية لا علاقة بالهولوكوست، رغم كل هذا إلا أنها توظف (أى الإبادة) وبشكل سوقى يسىء إلى ضحايا الإبادة أنفسهم لخدمة المصالح الصهيونية.

ورغم أنه قد يكون قد اختفى ستة ملايين بالفعل، لكن السؤال يطرح نفسه: هل اختفاؤهم هو نتيجة الإبادة المتعمدة أو أنها نتيجة مركب من الأسباب؟ السؤال يمكن أن يكون أكاديميًا محضًا، لأن الموت هو الموت سواء كان سريعًا بأفران الغاز أم بطيئًا من خلال أعمال السخرة، ولكن

ما يحوّل السؤال من سؤال أكاديمى إلى سؤال له أهمية سياسية مباشرة هو ما أشرنا إليه من توظيف بذئ للهولوكوست لتحقيق مكاسب للدولة الصهيونية ولإسدال ستار سميك من الدخان على المذابح الأخرى فى العالم سواء مذابح دولة الصهيانية أم مذابح الروس فى الشيشان، ومن قبل ذلك المذابح الغربية المختلفة فى المستعمرات!

وقد استمرت العناصر التى تؤدى إلى تناقص أعداد اليهود بعد الحرب العالمية الثانية، بل تصاعدت حدتها. فبلغ الزواج المختلط مؤخرًا ما يقرب من ٥٠٪ فى الولايات المتحدة وإلى ٨٠٪ فى بلد مثل فلندا. وبعد أن كان الزواج المختلط من قبل مقصورًا على الذكور اليهود، يلاحظ تزايد النسبة بين الإناث فى الآونة الأخيرة. وأصبح الزواج المتأخر، وهو نمط عام فى الدول التى يُقال لها متقدمة، ظاهرة واضحة بين اليهود. ويمكن أن نضيف إلى كل هذا تزايد عدد الشواذ جنسيًا بنسبة تصل فى بعض المدن فى الغرب إلى ٣٠٪ وهى آخذة فى التزايد، ومعظم الشواذ جنسيًا ينتمون إلى المرحلة العمرية النشطة جنسيًا وتوجد بينهم نسبة عالية من اليهود. ويلاحظ انسحاب كثير من النساء اليهوديات من عملية الإنجاب بتأثير حركة التمركز حول الأنثى feminism التى تجعل من أى نشاط أنثوى خاص (مثل الإنجاب) أمرًا سلبيًا أو معوقًا لنشاط المرأة فى الحياة العامة. كما أن ظاهرة الشذوذ الجنسى لم تعد ظاهرة مقصورة على الذكور اليهود وحسب وإنما تفشت أيضًا بين النساء اليهوديات. وقد ازداد تركز اليهود فى المدن، كما ازداد تفسخ الأسرة اليهودية وتزايدت نسبة الطلاق وهو ما يزيد من الإحجام عن الإنجاب.

وقد أدى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، حتى أصبحت واحدة من أقل النسب فى العالم. وأية جماعة

إنسانية – حتى تعيد إنتاج نفسها بيولوجيًا – لابد وأن تنجب الأنثى التى تنتمى إليها طفلا فى المتوسط. لكن المرأة اليهودية فى الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة فى العالم، فالإناث فى المرحلة العمرية ٣٥ –٤٤ ينجبن ١,٥٧ طفلاً، أما المرحلة العمرية ٢٥ – ٣٤ (وهى المفروض أكثر المراحل خصوبة) فالإناث ينجبن فيها ٠,٨٧ أى أقل من طفل واحد، مما يدل على أن منحنى التناقص آخذ فى الازدياد.

وقد بلغ عدد اليهود ١٣,٨٣٧,٥٠٠ عام ١٩٦٧، وبلغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ عام ١٩٨٢، أى أن عدد اليهود نقص بنحو المليون فى هذه الفترة دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعى. ويبلغ عدد اليهود حاليًا ١٣,٠٩٣,٠٠٠، أى إن عددهم ظل ثابتًا قرابة ربع قرن. ويتوقع معهد اليهودية المعاصرة التابع للجامعة العبرية بالقدس أن يصل عددهم إلى ١٣,٤٢٨,٠٠٠ عام ٢٠١٠. ولكن هناك توقعات أكثر تشاؤمًا من منظور صهيونى. فيذهب صموئيل لايبرمان ومورتون واينفيلد إلى أن عدد يهود الولايات المتحدة سيصل إلى ٣,٩ ملايين عام ٢٠٧٠. أما إلياهوبرجمان (بمركز هارفارد للدراسات السكانية) فهو أكثر تشاؤمًا إذ يرى أنه حينما تحتفل الولايات المتحدة بعيدها المئوى الثالث (٢٠٧٦) لن يتجاوز عدد اليهود ٩٤٤,٠٠٠ (أى أقل من مليون). مع ملاحظة أن كلمة «يهودى» يتلاعب بها الديموجرافيون اليهود حتى يزيدوا من أعداد اليهود فى العالم. وفيما يلى إحصاء بعدد اليهود فى العالم حاليًا (عام ٢٠٠٠) وبعد عشرة أعوام (٢٠١٠).

أماكن التواجد	العدد الحالى	العدد المتوقع فى عام ٢٠١٠
إسرائيل	٤,٧٩٠,٠٠٠	٥,٦٤٤,٠٠٠
أمريكا الشمالية	٦,٠٦٢,٠٠٠	٥,٩٣٩,٠٠٠
أمريكا الوسطى والجنوبية	٤٢٨,٠٠٠ (تضم الأرجنتين وحدها ٢٠٣ ألف)	٣٩٨,٠٠٠
أوربا	١,١٣٨,٠٠٠ (تضم فرنسا وحدها ٥٢٢ ألفا)	١,٠٦٦,٠٠٠
الاتحاد السوفيتى السابق	٥٤٠,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠
آسيا وشمال إفريقيا	٢٨,٠٠٠	٢٦,٠٠٠
جنوب إفريقيا + منطقة المحيط الهندى	١٩٥,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠
الإجمالى	١٣,٠٩٣,٠٠٠	١٣,٤٢٨,٠٠٠

المصدر: معهد «اليهودية المعاصرة» المسمى باسم «أم هيرمان» والتابع للجامعة العبرية بالقدس.

ويُلاحظ أن عدد اليهود فى العالم سيظل ثابتًا تقريبًا وسيصبح هناك جماعتان يهوديتان أساسيتان: إسرائيل والولايات المتحدة وكندا «إلا إذ صدقت نبوءة إلياهو برجمان، وفى هذه الحالة لن توجد سوى الجماعة اليهودية فى إسرائيل). أما بقية العالم فسيضم جماعات يهودية صغيرة مشتتة ليس لها أى ثقل إحصائى.

□□□

أضواء على الوضع الديموجرافى ليهود العالم

وأخيرًا ظهر تقرير العالم الإسرائيلى سير جيو ديلا برجولاه عن الوضع الديموجرافى (السكانى) ليهود العالم. وديلا برجولاه واحد من أهم المتخصصين فى هذا الموضوع. وسأحاول أن أعرض لبعض الحقائق التى ترد فى تقريره مع محاولة تفسيرها، فالأرقام لا تنطق بالحقيقة. إذ لابد من استنطاقها، من خلال ربط بعضها البعض، وبأنماط أشمل وأعم منها.

يلاحظ ديلا بلاجولاه أن أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم زاد عددهم بمعدل ١٠٠ ألف نسمة فى الفترة من ١٩٩٨ حتى الوقت الحاضر، وأن عددهم أصبح الآن ١٣,٢ مليونًا بعد أن كان ١٣,١. ولكننا نعرف أن عدد اليهود عام ١٩٦٧ كان ١٣,٨٣٧,٥٠٠، أى إن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لم يتزايد فى واقع الأمر وإنما تناقص حوالى نصف مليون فى الخمس والثلاثين سنة الماضية، وهذا رغم تحسن أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى كل أنحاء العالم.

وفيما يلى توزيع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم:

القارة	عدد اليهود	النسبة المئوية
الأمريكتين	٦,٤٨٤,٨٠٠	٤٩,٢٪
آسيا	٤,٩٣٢,٩٠٠	٣٧,٤٪
أوربا	١,٥٨٣,٠٠٠	١٢٪
أستراليا	١٠١,٩٠٠	٠,٨٪
إفريقيا	٨٩,٠٠٠	٠,٧٪

التجمعات السكانية اليهودية الكبرى

التجمع	عدد اليهود
الولايات المتحدة	٥,٧٠٠,٠٠٠
إسرائيل	٤,٨٨٢,٠٠٠
فرنسا	٥٢١,٠٠٠
دول الكومنولث	٤٦٨,٠٠٠

والأرقام - كما قلنا - لا تقول شيئًا، فهى صماء، مجرد «حقائق»، وليست الحقيقة، فالحقيقة هى أمر كلىّ شامل متكامل له معنى يجرده المرء من الحقائق المتناثرة الصماء، التى لا تعنى شيئا فى حد ذاتها ويمكن للدارس أن يفرض عليها ما يشاء من معان. ولنحاول أن نفعل ذلك من هذه الأرقام.

إن الأرقام الواردة فى الجدول السابق تبين أن غالبية ما يسمَّى بـ«الشعب اليهودى» الذى يدّعى الصهاينة أنه فى حالة شوق دائم للعودة إلى أرض الميعاد (٦٣٪ أى ٨,٣ ملايين يهودى) لايزال يعيش فى «المنفى» بكامل إرادته ولا يوجد سوى ٣٧٪ منه أى ٤,٩ ملايين فى إسرائيل، مما يعنى أن «المنفى» ليس بمنفى، وأن الشعب ليس بشعب، وأن «الشتات» ليس بشتات، وأن كل ما هنالك هو أقليات يهودية وجد أعضاؤها أن حياتهم فى أرجاء العالم تتيح لهم فرصًا حقيقية للحياة الإنسانية الكريمة وأن الشعار الصهيونى «شعب بلا أرض» لا أساس له من الصحة، لأن أعضاء الجماعات اليهودية المنتشرة (لا المنفية) فى أنحاء العالم لا تبحث عن أرض أو وطن، وإنما تندمج فى المجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها.

وبالفعل توجد دراسة أصدرها مركز «الهوية اليهودية» بجامعة بار إيلان بإسرائيل تشير إلى أن معاداة اليهود قد انخفضت معدلاتها فى معظم دول العالم، كما أن وضع اليهود بها أصبح أفضل من أى وقت مضى. فاليهود مستقرون فى مجتمعاتهم ويحصلون على المناصب التى يريدونها، وكل هذه الأمور تزيد معدلات اندماجهم خلال جيلين أو ثلاثة أجيال. ومن الطريف أن دكتور يعقوب إليأف مدير مركز الهوية اليهودية قد «حذّر» من ذلك الوضع (كما جاء فى هاتسوفيه ٢٠٠٠/٩/٤)، ولذا تصر جامعة بار إيلان على ضرورة عقد مؤتمر دولى حول موضوع الاندماج وتعتزم عقد هذا المؤتمر بصفة سنوية وتخصص اعتمادات للأبحاث التى تجرى لمكافحة ظاهرة الاندماج. إن الاندماج يشكل خطورة حقيقية على الصهيونية، لأنها، كما قال أى إف. ستون، المفكر الأمريكى اليهودى، تعيش على الكوارث التى تحيق باليهود، وبدون كوارث لا يمكن أن تقوم لها قائمة، إذ يستقر اليهود حينذاك فى مجتمعاتهم، يعيشون فيها شأنهم شأن أية أقليات دينية أو إثنية أخرى.

ومن مظاهر الاستقرار والاندماج تصاعد معدلات الزواج المختلط بين أعضاء الجماعات اليهودية وأبناء مجتمع الأغلبية. وقد وصلت هذه الزيجات المختلطة إلى ما يزيد عن ٥٠٪ فى كثير من المناطق. وشير ديلا برجولاه إلى أن ٢٥٪ فقط من أبناء هذه الزيجات هم الذين يصنفون أنفسهم يهودًا، ويمكن أن نضيف أنه حتى هؤلاء تكون هويتهم اليهودية ضعيفة وتكاد تكون اسمية، وكل هذا يؤدى إلى الانصهار والاختفاء الذى بلغ ذروته فى ألمانيا وأوكرانيا (٧٥٪).

ويسمى الصهاينة الزواج المختلط «الهولوكوست الصامت»، أى الإبادة الصامتة لليهود، وهى تسمية أيديولوجية كريهة ومضللة. فاليهود الذين

يستقرون فى بلادهم ويتزاوجون من أعضاء الديانات الأخرى لا يُبَادُون، وما يتهاوى ويسقط هو الادعاءات الصهيونية الكاذبة. ويرى يعقوب إلياف أنه إن لم يتم الكفاح ضد ظاهرتى الاندماج والزواج المختلط فسوف يتقلص عدد أبناء «الشعب اليهودى» (المقيمين خارج إسرائيل) عام ٢٠٢٥ إلى ١,٥ - ٢,٥ مليون يهودى فقط، وهذه قد تكون مبالغة، ولكنها مبالغة دالة.

ومن الأمور المهمة التى يذكرها التقرير أن عدد اليهود فى الاتحاد السوفيتى السابق خلال عام ٢٠٠٠ قد بلغ أقل من نصف مليون نسمة (٤٦٨ ألف يهودى، عدد كبير منهم من المسنين وغير القادرين أو الراغبين فى الهجرة). وأن عدد اليهود فى فرنسا حاليًا هو ٥٢١ ألفا، أى أن عدد يهود فرنسا يفوق عدد اليهود فى الاتحاد السوفيتى السابق. كما تشير الإحصاءات إلى أن عدد يهود غرب أوربا أصبح أكثر من عدد يهود شرق أوربا، لأول مرة فى التاريخ الحديث، وهذه مسألة ذات أهمية قصوى. فنحن نذهب إلى أنه توجد صهيونيتان لا صهيونية واحدة: الأولى هى الصهيونية الاستيطانية، وهى أن يترك اليهودى بلده ويذهب إلى فلسطين ليصبح مستوطنًا صهيونيًا فيها. أما الثانية فهى الصهيونية التوطينية، وهى أنه يكتفى اليهودى الذى يسمى نفسه صهيونيًا بأن يعطى الدعم المالى والسياسى للمنظمة الصهيونية لتوطين يهود آخرين (وقد تم تلخيص موقف الصهيونية التوطينية فى تعريف يقول إن الصهيونى التوطينى هو يهودى يدفع المال ليهودى ثان لإرسال يهودى ثالث إلى أرض الميعاد!). وصهيونية العالم الغربى صهيونية توطينية، فشرق أوربا كان دائمًا مصدر المادة البشرية الاستيطانية، ومع جفاف ينابيعها، فإن أزمة الاستيطان ستتفاقم فى الدولة الصهيونية.

وأخيرًا يشير ديلا برجولاه إلى أنه إذا استمرت الاتجاهات الحالية (من تناقص عدد المواليد وتزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط) والتى يصاحبها ظاهرة أن الجماعات اليهودية فى العالم لا تتزايد بسبب العزوف عن الزواج والإنجاب (تنجب الأنثى اليهودية فى الولايات المتحدة فى المرحلة العمرية من ٢٠ - ٣٠، وهى أكثر مراحل العمر خصوبة، أقل من طفل، وحتى تعيد الجماعة الإنسانية إنتاج نفسها يجب أن تنجب الأنثى طفلين ونصفًا تقريبًا). إذا حدث ذلك فإن ديلا برجولاه يتوقع أن عدد اليهود فى إسرائيل سيكون مماثلاً لعددهم فى بقية أنحاء العالم، فى غضون أقل من ٣٠ عامًا. ثم يشير إلى أن نصف الأطفال اليهود (ممن تصل أعمارهم إلى ١٥ سنة) يعيشون حاليًا فى إسرائيل، وأنه فى عام ٢٠٢٠ ستصل نسبتهم إلى ثُلثى الأطفال ممن هم فى هذه المرحلة العمرية، وهذا الوضع الديموجرافى سيُغيِّر الصورة تمامًا.

□□□

الشوق الأزلى إلى صهيون

المصطلح الصهيونى مصطلح أيديولوجى متحيز معبأ بالمفاهيم الصهيونية. فمصطلحات مثل «الشعب اليهودى» و «المنفى» و «الشتات» مصطلحات لا أساس لها من الصحة إذا ما نظرنا إلى واقع اليهود الديموجرافى (السكانى). والمصطلحات الصهيونية بخصوص هجرة اليهود إلى فلسطين تحمل نفس الأعباء الأيديولوجية وبشكل أكثر حدة فهم يطلقون على الهجرة إلى فلسطين كلمة «عالياه» وهى كلمة عبرية مشتقة من فعل «يعلو»، ولذا فالكلمة تعنى «الصعود إلى السماء» و «الصعود لقراءة التوراة فى المعبد أثناء الصلاة» و «الصعود إلى أرض إسرائيل بغرض الاستيطان الدينى». وفى العهد القديم نجد أن الذهاب إلى فلسطين يعبُر عنه بعبارة

«الصعود إلى الأرض» (أما الذهاب إلى مصر فيُعبَّر عنه بـ «النزول إليها»). وقد كانت للعالياه أغراض عديدة ولها إيحاءات عاطفية ودينية، فمثلاً كانت تتم بغرض الشفاء من الأمراض وللتخلص من الفقر، كما كان الكهول يهاجرون لاعتقادهم أن الدفن فى أرض الميعاد يجلب ثوابًا كبيرًا. وكان البعض «يعلو» إلى إرتس بسرائيل بغرض دراسة التوراة.

وقد استخدمت الحركة الصهيونية هذا المصطلح الدينى وجردته من بُعده الإيمانى المجازى وأطلقته على حركة الهجرة الصهيونية من شرق أوربا إلى فلسطين فى العصر الحديث، وفى هذا تعمية أيديولوجية. فالعالياه مصطلح دينى يصف أفعالاً فردية وأوامر يُفترض فيها أنها ربانية ذات قداسة معينة من وجهة نظر من يقوم بها، ولا يمكن إطلاقه على ظاهرة اقتصادية اجتماعية سياسية يقوم بها فريق من الصهاينة لا يؤمن معظمهم بالعقيدة اليهودية. ومما له دلالته أن كلمة «هجيراه» العبرية كلمة محايدة تؤدى نفس المعنى، ولكن الحركة الصهيونية تؤثر استخدام المصطلحات التقييمية على المصطلحات الوصفية حتى يمكنها فَرْض غمامات أيديولوجية. وتهدف هذه المصطلحات الرومانسية ذات الهالات الدينية إلى توليد الانطباع أن اليهود فى حالة شوق دائم وولع أزلى للعودة إلى صهيون الحبيبة!

وبدلاً من قبول الادعاءات الصهيونية عن أنفسهم كما يفعل كثير من المحللين الغربيين والعرب ننظر إلى الواقع ذاته، إلى إحصاءات الهجرة. إذا نظرنا إلى عدد اليهود الذين استوطنوا فى فلسطين فى الفترة بين عامى ١٨٨٢، ١٩٣٢ نجد أنه لا يتجاوز ١٧٤ ألفًا (منهم ٣٠ ألفًا، أى ١٦٪ من اليهود الذين استوطنوا فى فلسطين لأسباب دينية قبل بداية الاستيطان الصهيونى). هذا يعنى أنه خلال ٥٠ عامًا كان يهاجر إلى فلسطين ٢٥٠٠

يهودى كل عام من مجموع يهود العالم الذى بلغ آنذاك ١٦ مليونًا. وفى الفترة من ١٨٨٢ - ١٩١٤ غادر روسيا أربعة ملايين يهودى لم يتوجه منهم سوى ٩٠ ألفًا إلى فلسطين. فأين هذا التشوق الأزلى والدائم للعودة لأرض الميعاد؟

تغيَّرت الصورة قليلاً فى الفترة من ١٩٣٢ - ١٩٤٤ إذ هاجر ٢٦٥ ألف يهودى، وهو أعلى رقم بلغته أفواج المهاجرين أثناء الانتداب. وهذا لا يعود إلى الشوق الأزلى إياه، وإنما إلى وصول هتلر إلى السلطة ولذا قال أحدهم إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الحركة الصهيونية، أى منظرّها، فإن هتلر هو لينين الصيهيونية، أى من وضعها موضع التنفيذ.

ونفس النمط يستمر بعد إعلان الدولة، فالهجرة لم تتم، إلا فى القليل النادر، لأسباب أيديولوجية. فيهود البلاد العربية لم يهاجروا حبًا فى صهيون وإنما بحثًا عن الحراك الاجتماعى، ولذا نجد أن الأثرياء بينهم وذوى الخبرات الخاصة هاجروا إلى أوربا. كما هاجر كل يهود الجزائر إلى فرنسا لأنهم كانوا يحملون الجنسية الفرنسية!

وقد تساقطت كل الادعاءات الصهيونية تمامًا مع هجرة اليهود السوفييت الذين جاءوا إلى إسرائيل بحثًا عن الحراك الاجتماعى، ولذا فهم لا يريدون أن يسمعوا «شيئًا عن صهيون» على حد قول يورى جوردون رئيس قسم الاستيعاب فى الوكالة اليهودية. وقد لخص أحد المهاجرين المرتزقة الموقف بقوله: «لم يكن أمامى خيار سوى أن أذهب إلى إسرائيل بعد أن قضينا سبعة شهور فى روما». ولكنه أعلن عن تصميمه على عدم البقاء. وقد بدأت الصحف الصادرة بالروسية فى إسرائيل بتخصيص مساحة كبيرة يحتلها معلنون يعرضون تزويد القراء بأشد ما يرغب المستهلكون فيه من سلع: تأشيرات دخول إلى كندا. وقد وصف أربيه

ديرى، وزير الداخلية، المهاجرين المرتزقة وصفًا دقيقًا حين قال: إنهم بعد وصولهم ستجدهم جالسين على حقائب السفر. وقال أوبليون: «بعض ممن لا يمكنهم الذهاب إلى الولايات المتحدة سيأتون إلى إسرائيل بهدف استخدامها كمحطة على الطريق، وسيقومون باستغلالنا أيضًا، وسيأخذون أية خبرات قد نقدمها لهم، وقد ينتهى بنا الأمر إلى أن يتجمع عندنا عدد كبير من الناس الذين يشعرون بالبؤس والذين ينتظرون أول فرصة ليقفزوا عن إسرائيل»، فهم يعرفون تمامًا « أن إسرائيل بلد صعب وأن الولايات المتحدة بلد سهل بالمقارنة». والسهولة قيمة أساسية بالنسبة لهؤلاء الباحثين عن «الراحة والترف» (كما وصفهم يورى جوردون).

وقد وصف بعض المهاجرين الأسباب التى دعتهم إلى ترك الاتحاد السوفيتى، فقال أحدهم: إن الحياة هناك أصبحت مملة. فالهجرة إلى إسرائيل هى مجرد بحث عن الإثارة. وقال أحد أساتذة علم الجبر إنه ترك الاتحاد السوفيتى لأنه أدرك أن الوقت قد حان لأن يفعل ذلك، وأشار مهاجر ثالث إلى أنه ترك الاتحاد السوفيتى لأنه يريد أن يعيش حياة أفضل. وحتى يؤكد مدى عمق التزامه بهذه الفلسفة، ذكر أنه جاء لا ليشترى سيارة ولكن ليكون لديه سيارة بمحرك أكبر، ومن المستحيل أن نعرف كم مهاجرًا (سوفيتيًا) يشبه إيفان الذى ترك إسرائيل بعد أن عمل سنة فى الكيبوتس، لأنه يكره التعصب الدينى والطقس الحار، وكأنه كان يتوقع أن تكون أرض الميعاد فى القطب الشمالى أو على مسافة صغيرة من روسيا، أو أن الحركة الصهيونية قد وعدته بأرض ميعاد مكيفة الهواء.

وكثير من هؤلاء الصهاينة أو المرتزقة ليس لهم علاقة كبيرة باليهودية. وقد جاء فى صحفية ها آرتس (١/ ١/ ٢٠٠١) أن حوالى ٢٢٥ ألفًا من المهاجرين الروس الجدد (أى حوالى ٢٥٪) الذين سجلوا كيهود ليسوا يهودًا

بالفعل. كما ذكرت الصحيفة نفسها فى عددها الصادر فى ٢٢ يونية ٢٠٠٠ أن عددًا كبيرًا منهم لم يكن يعرف فى الماضى أنهم يهود، أى إنهم اكتشفوا أنهم يهود فجأة (وبخاصة بعد أن عرفوا عن التسهيلات أو الرشاوى المالية التى تُقدَّم لهم). وتقوم المؤسسة الأشكنازية الغربية الحاكمة فى إسرائيل بتيسير الأمور لهم. ولذا تعقد لهم امتحانات صورية فى اليهودية يسهل عليهم اجتيازها حتى يمكن اعتبارهم يهودًا، وهذا يعود لأسباب لا علاقة لها بالصهيونية، وإنما بتعديل الميزان الديموجرافى (السكانى) لصالح الأشكناز فى مقابل السفارد، واليهود العلمانيون فى مقابل الأرثوذكس، واليهود ككل فى مقابل العرب. وتذهب المؤسسة الحاخامية إلى أن نصف هؤلاء المهاجرين السوفييت ليسوا يهودًا (وبخاصة إذا عرفنا أن نسبة الزواج المختلط بينهم عالية جدًا).

ويبلغ عدد الإسرائيليين من منشأ روسى (من الصهاينة المرتزقة) حوالى مليون (أى حوالى خُمس سكان إسرائيل) يشكلون كتلة «قومية» مستقلة، لها تميزها وحضورها الخاص، فهم كيان مستقل داخل الكيان الإسرائيلى، فلهم محطة إذاعة وتليفزيون خاصة بهم، وصحافة باللغة الروسية وأندية ومدارس. فهم - كما قال أحدهم - «يفكرون بالروسية ويتواصلون فيما بينهم». وتنبع قوة الثقافة الروسية المحلية (المنقطعة الصلة بالثقافة الإسرائيلية والمرتبطة بثقافة الوطن القديم) من حجمها الكبير ومن المؤهلات البشرية التى فى حيازتها. ولذا فهى تحافظ بشراسة على استقلالها، بل إن أحدهم أشار إلى تكوين حزب إسرائيل بعالياه على أنه بداية حرب الاستقلال الخاصة بالروس. ولذا لا يُصنِّف سوى ١٦٪ منهم نفسه على أنه «إسرائيلى» مقابل ٢٦٪ اعتبر نفسه «من رابطة الدول المستقلة» و ٣٢٪ اعتبر نفسه «يهوديًا» (أى أكثر من النصف) واكتفى ١٢٪ بأن يسمى نفسه تسمية محايدة «مهاجر جديد».

ولم يتم قبول هذه الكتلة الروسية من قبل المجتمع الإسرائيلى، ولذا يشعر ٥٩٪ من المهاجرين السوفييت أن المجتمع الإسرائيلى يستوعب الهجرة إما بلا مبالاة أو بعدائية. وفى المقابل حين سئل الإسرائيليون عن وصفهم للمهاجرين السوفيت قال حوالى ٣٦٪ إنهم بروفسير كناس وسمسار وعاهرات (واتهام المهاجرين السوفييت باحتراف البغاء والجريمة المنظمة، اتهامات لها أساس فى الواقع).